لقاح العقول أو لقاح الأنساب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أسرته الأصيلة من الفلنك

وانتقل جد من جدوده إلى النمسا فأقام فى الأقاليم البوهيمية واتصل هو وأبناؤه من بعده بخدمة آل هابسبرج

وبنى جده لأبيه بيوتانية من جزيرة أفريطش ، وبنى أبوه يابانية من أذكى نساء اليابان

ذلك هو مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده ، واسمه الكونت « ريتشارد كودينهوف كاليرجى »

أما اسم الكتاب فهو « حكومة الاستبداد حيال الإنسان »
The Totalitarian State Against Man

* * *

قرأت هذا الكتاب فقرأت عجباً من تآلف الأفكار الغريبة ، وتقارب الأقطار البعيدة ، واختلاط الأساليب التى انعزلت مع الماضى مئات القرون

هنا شىء من اليابان لا شك فيه ، وشىء من اليونان لا شك فيه ، وشىء من تعبد الفلنكيين ، وشىء من جاح البوهيميين ، وشىء من أدب البلاط ، وشىء من مساواة الحرية ، ولكنك لا تستطيع أن تفرزها ولا أن تستخرج كل خيط من خيوطها مستقلاً من سائر شباكها

وكل ما تستطيعه أنك تحس لكل جنس من هذه الأجناس أثراً فى مزج الأفكار وصياغة الألفاظ وتنسيق الحلية الكتابية . وقد تجزم الجزم الأكيد أن اليابانى وحده لن يصنف الكتاب على هذا الأسلوب ، وكذلك اليونانى والبوهيمى والفلنكى ورجل البلاط وجوّاب الآفاق ، ولكنهم إذا اتصلوا بالأنساب والثقافات كما اتصلوا فى ذهن هذا المصنف نتج من تلاقح أذهانهم وثقافاتهم مثل هذا الكتاب

* * *

خذ مثلاً هذه الكلمات :

« الإنسان من صنع الله ،

والحكومة من صنع الإنسان .

الإنسان غاية وليس وسيلة ،

والحكومة وسيلة وليست بغاية .

قيمة الحكومة هى قيمة ما تؤديه من الخدمة لمن فيها من الخلائق الإنسانية . فكلما خدمت الإنسان وعاونته على التمام والكمال فهى حسنة ، وحيثما بدر منها التعطيل لتمامه وكماله فهنالك الشر والسوء

الحكومة ليست شيئاً حياً ولا جسداً حياً ولا عضواً حياً ؛ ولكنها آلة أو أداة مجعولة لخدمة الإنسان فى صراعه للفوضى والاختلال

الإنسان مخلوق حى ، والحكومة أداته للخير أو للشر ، وللنفع أو للإضرار إذ ليست الحكومة كائناً إنسانياً ولكنها مع هذا تريد أن تكون أكثر من إنسان

ليست هى إلهاً فهى إذن تصبح صنماً

يصنعها الناس وتطلب منهم العبادة

وهذه المصنوعة الإنسانية تعدو طورها فتتخذ لنفسها مكان الوساطة بين الله والإنسان !

هذه الآلة المصطنعة تحسب نفسها مخلوقة عضوية حية ... وهذه الخادمة التابعة تتخايل أمام بنى الإنسان فى زهو السيادة !

إننا نعيش اليوم فى أخطر عصور الانقلاب التى مرت بها الدنيا ؛ لأنه عصر انقلاب الحكومة على نوع بنى الإنسان !

إننا نعيش فى أسوأ ما عهدنا من عصور عبادة الأصنام ؛ لأنه عصر تأليه الحكومات »

* * *

ومثل آخر من خواطر هذا الكتاب النفيس ما جاء منه فى مستهل الكلام على الديمقراطية والنظم النيابية حيث يقول :

« الحرية مثل أعلى وغاية منشودة

الديمقراطية مبدأ وقاعدة

النظام البرلمانى هو وسيلة أو طريق

والخلط بين هذه المعانى يؤدى إلى تشويش مزعج

فانجلترا حرة ولها نظام برلمانى ؛ ولكن دستورها يعتمد

على الديمقراطية بعض الاعتماد لا كل الاعتماد ؛ لأن المجلس الأعلى والتقاليد الوراثية ليست من الديمقراطية بلا خلاف

وروسيا وألمانيا وإيطاليا ليست بحرة وإن كان لكل منها دستور قائم على سيادة الأمة وعلى مبدأ الكثرة فى ولاية الحكومة كما تقضى أصول الديمقراطية

والولايات المتحدة وسويسرة حرتان وديمقراطيتان ولكنهما على غير الوضع النيابى متى كانت الحكومة فيهما لا تسقط بانتزاع الثقة البرلمانية منها

واليابان لها نظام برلمانى ولكنها ليست بالديمقراطية ، لأن دستورها لم يؤسس على سلطان الأمة بل على سلطان الامبراطور . وهو — أى الامبراطور — يقبل باختياره أن يشرك معه الحكومة البرلمانية

ومن المحتمل جداً أن تتصور حكومة حرة تحترم حقوق الأفراد على أيدى قلة متعاقبة ، كما تتصور حكومة متعسفة تقيد الحريات جميعاً على أيدى كثرة تدين بعقائد الاستبداد

فالروح الموحية أهم وأقوم من نصوص الدساتير . وحيثما يطل اليقين بالإنسان والاعتداد بحقوق الأفراد لم يكن عجيباً أن يفضى بنا الانتخاب العام إلى الاستبداد ؛ لأن المستبد والشعوذ السياسى ليسا بالنقيضين ، ولكنهما قرينان متماثلان »

* * *

وكل فصل من فصول الكتاب حافل بهذه الدقائق وهذه القضايا وهذه التعريفات

هنا ولا شك أناقة اليابانى فى التنسيق وخفة اليابانى فى الحركة

وهنا ولا شك نفاذ اليونانى إلى بواطن المعانى الفلسفية والحدود المنطقية

وهنا ولا شك جنوح الفلسكى إلى صبغ الحقائق بصبغة العبادة والأسرار

وهنا ولا شك طلاقة البوهيمى ، وكياسة الرجل البلاطى ، وثقافة الإنسان الحديث

إنك لا تشك فى خصلة من هذه الخصال كما لا تشك فى اختلاف النهج والأداء لو كان الكاتب يابانياً أو يونانياً أو فلسكياً أو بوهيمياً غير مختلط بما عدا سلالته وثقافته من السلالات والثقافات

ولكن أين هذا وأين ذاك ؟

أين يبتدئ هذا التفكير وأين ينتهى ذلك التفكير ؟

وما وسيلتك إلى منع عنصر من تلك العناصر أن يظهر فى منهج الكتاب وأدائه إن كانت بك حاجة إلى امتناعه ؟

وما وسيلتك إلى زيادة عنصر من تلك العناصر إن كانت بك حاجة إلى ازديادة ؟

— لقد شغلنى التوجه إلى هذا المعنى أثناء القراءة حتى خيل إلىّ أننى فى معمل من معامل الطبيعة أرقب فيه براعها فى الخلط والمزج والجمع والتفريق

أو خيل إلى أننى أمام مسرح التاريخ الكبير يتناول اللاعب القدير على خشباته نسيج الأحقاب والأعقاب منذ ألوف السنين فيداخل بينها ويواشج بين خيوطها على نمط من السرعة لا تضبطه بعينك فى مكان واحد ، ولكنك تضبطه كله حين ينتهى إلى النتيجة فإذا هو هناك حيث لا تدرى من أين اتصاله ومن أين انفصاله فى مجمل النسيج

— وربّ كلمة من كلمات الكتاب لها اتصال بجزائر اليابان ، وكلمة أخرى لها اتصال بشعاب البوهيميين ، وكلمة مجاورة لها قد جاءت من أقصى المغرب أو من أقصى الشمال

إن النظر إلى هذا لأمتع من النظر فى حقائق الكتاب ، وإن كانت حقائقه من المتعة بمكان

* * *

ثم يجول فى الذهن خاطر آخر هو فضل هذا اللقاح العجيب فى تحسين العقول أو فى تحسين الطباع .

هل تستفيد « الإنسانية » بامتزاج كهذا الامتزاج يعم جميع الأجناس فى الشرق والغرب ، ويعم جميع الثقافات وجميع المذاهب والآراء ؟

— أو هل هى قيمة واحدة من القيم الكثيرة تحتفظ بها وتحتفظ معها بصفاء الأصول وافتراق السلالات ، وما فى كل سلالة من مزية ورثتها واستقلت بها بعد تحضير طويل فى معمل التاريخ ؟

يحضرنى فى هذا الصدد ما يصنعه مولدو الأزهار من مختلف الأحجام والألوان والأصول

يروقهم أن ينبتوا الوردة السوداء فيستفيد عالم النبات فائدة